تاريخ الارسال:2018/07/16 تاريخ النشر : جانفي 2019

# تجربة النقد الاجتماعي في الجزائر

The experience of social criticism in Algeria

د.سحنين علي

جامعة معسكر

✓**ملخص البحث:**

تحاول هذه الدراسة أن تقارب توجها نقديا من التوجهات التي راجت في الممارسة النقدية الجزائرية، وفي حقبة زمنية محددة، ويتعلق الأمر باتجاه النقد الاجتماعي بوصفه أحد أكثر المناهج والإبدالات التي جربها النقد الجزائري، وأفرزتها ظروف مختلفة وحساسيات جديدة. فما مظاهر تلقي النقد الاجتماعي في النقد الجزائري؟ وما مرجعياته وأدواته؟. **الكلمات المفتاحية:** النقد الجزائري، النقد الاجتماعي، الممارسة النقدية الجزائرية

✓**Abstract:**

This study is trying to approach critical orientation in the critical practice Algerian, and in a limited period of time, It is about social criticism, as one of the most common method and replacements, which was tested by Algerian criticism, and produced different conditions and new sensitivities. What are the manifestations of social criticism in Algerian criticism? and what are its references and tools?

✓**key words :** Algerian criticism, social criticism, the

✓critical practice Algerian.

**ملمح النقد الجزائري:**

بعد استقلال الجزائر أخذت الجهود والمحاولات النقدية الجزائرية مسارا مغايرا بفعل ما جد على الساحة العالمية والمحلية من تحولات ثقافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية، فتوجت بمرحلة أكثر نضجا وانتظاما تختلف كل الاختلاف عن المرحلة التقليدية الكلاسيكية في كونها بدأت تنظر إلى النص الأدبي وفق رؤية منهجية واضحة وشروط نقدية تحليلية تتأسس على العوامل الخارجية والظروف السياقية المحيطة بالعمل الأدبي.

هذا ما تجسد فعلا مع ما أطلق عليه تسمية المرحلة السياقية بمناهجها النقدية المختلفة والمستقلة عن بعضها؛ لأن كل منهج من هذه المناهج يستند إلى رؤية منهجية وفلسفية مستقلة تميزه عن غيره من المناهج الأخرى، وهذه المناهج تمثلت في المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والانطباعي والنفساني وغيرها من المناهج الأخرى التي تركز عنايتها على محاولة استكشاف السياقات الخارجية للنص الأدبي.

وبذلك فإنه مع بدايات النصف الثاني من القرن العشرين عمل النقد الجزائري على الاجتهاد في تجديد أدواته التحليلية وتغيير منطلقاته النقدية، وعلى تجاوز شرنقة الحدود التقليدية الضيقة التي ميزت المرحلة السابقة، والتي لم يجد فيها النقاد الجزائريون من سبيل سوى محاكاة جهود النماذج النقدية القديمة وإحيائها أمثال: ابن قتيبة وابن سلام الجمحي وقدامة بن جعفر وابن طباطبا والآمدي والجرجاني، وغيرهم. لكن هذه المرحلة الجديدة جعلت الناقد الجزائري "يجتهد في الخروج من إسار الدرس اللغوي والبلاغي، الذي رسف نقدنا في أغلاله طويلا، وراح يتوجه بكل العنفوان المتاح، والطاقة الممكنة نحو مقاربة النص الإبداعي، بوصفه كلا نوعيا، وبالدرجة الأولى بوصفه نصا له دلالاته السياسية والاجتماعية والفكرية. فضلا عن الجمالية، أسوة بفكر النهضة المؤطر له، والذي سعى هو الآخر إلى نبذ التخلف والتقليد، ونشدان التحرر والتحديث والتقدم"[1]. فإذا كانت مسألة تصادي فكر النقد مع فكر النهضة العربية عامة وتفاعله معها وتجاوبه مع جميع قضاياها الثورية والتحررية، ومختلف إشكالاتها الاجتماعية والسياسية والفكرية قد أسهمت في بلورة النقد العربي الحديث ونشأته[2]؛ فإن ذلك بإمكانه أن ينسحب على النقد الجزائري بوصفه جزءا منه يتأثر بمؤثراته، ويتفاعل مع نماذجه وتجاربه التي وصل صداها إلى الجزائر المستقلة الباحثة عن سبل جديدة للتقدم والنهوض والتطور سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا، والنقد جزء من هذه الفعالية الفكرية والأدبية. ولعل هذا التداخل والتواشج بين الفكر والنقد هو ما عبر عنه "فيصل دراج" حينما رأى "أن الدفاع عن حداثية أدبية، والنقد الأدبي ظاهرة حداثية، لا معنى له خارج مجتمع حديث في علاقاته الأدبية وغير الأدبية"[3]. بمعنى آخر لا يمكن والحالة هذه لأي ظاهرة نقدية مهما كانت أن تتشكل إلا في إطار تأثرها ومدى تفاعلها مع حركة الفكر والثقافة السائدة في المجتمع.

إن الانفتاح الذي سجله النقد الجزائري -بعد الاستقلال- على المنجزات الأدبية والنقدية العربية والغربية أسهم في تبلور إبدال نقدي أول ظهر على أنقاض النقد التقليدي الذي ظل مهيمنا ردحا من الزمن في الساحة النقدية الجزائرية. وعلى الرغم من ذلك إلا أن عملية الإفادة والانفتاح على هذه المناهج الوافدة، وعلى بعض التجارب النقدية العربية النشيطة في بعض البلدان العربية، كمصر وسوريا ولبنان والمغرب التي احتضنت العديد من المحاولات

المتميزة وبعض الأقلام النقدية البارزة مثل: طه حسين، ومحمود أمين العالم، وحسين مروة، ويمنى العيد، وفيصل دراج، وأدونيس، وغالي شكري، ورئيف خوري، ومحمد مندور، وسلامة موسى وعز الدين إسماعيل وجورج طرابيشي وسعيد علوش ومحمد بنيس وحميد لحمداني...وغيرهم، لم ترق إلى مستوى التطلعات، و لم تتمكن من مواكبة مستجدات الحركة النقدية العربية والعالمية. كما أنها لم تستفد -كما يجب- من المعارك النقدية الخصبة التي ظهرت في العديد من البلدان العربية، وبالأخص مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين على حد تعبير الناقد مخلوف عامر[4] الذي رغم اقتناعه ببعض المجهودات النقدية في بلادنا مثل مجهودات محمد مصايف وعبد الله الركيبي وأبي القاسم سعدالله، محمد ساري، والأعرج واسيني ألفيناه يقدم توصيفا لطبيعة الحركة النقدية في الجزائر بعد الاستقلال مقارنة بنظيرتها في المشرق العربي، مبينا الأسباب والعوامل التي أفضت إلى تأخرها وضعفها في بلادنا في هذه الفترة، وهذه العوامل يمكن إجمالها في النقاط الآتية[5*]:

✓عدم قطع الصلة مع الثقافة التقليدية والتحرر من قيودها التي وقع الأدب والنقد تحت أسرها.

✓جهل الأغلبية من خريجي الجامعات الجزائرية بالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إن لم يطل ذلك الأدب المكتوب باللغة العربية، فضلا عن جهلهم بالمناهج والنظريات النقدية الحديثة والمعاصرة.

✓ضعف الاحتكاك والتفاعل مع المعارك النقدية في المشرق العربي وقلة الاستفادة من التجارب النقدية التي ظهرت هناك، ولا سيما في مصر.

✓عدم مواكبة ما يستجد في الساحة النقدية العربية والعالمية، وحتى عملية اطلاع بعض الأقلام الجزائرية على منجزات بعض التجارب العربية كان محدودا وبنسب متفاوتة ولا يقتصر في معظمه إلا على مخلفات الجيل الأول الذي انفتح في هذا الوقت على الحركة النقدية العالمية وربط صلته بمناهجها ونظرياتها.

✓لم تتوفر مجلات علمية رائدة ومتخصصة بحجم مجلة فصول المصرية، يكون بإمكانها احتضان الجهود الأدبية والنقدية، ولو وجدت بعض المجلات مثل: آمال و الرؤيا إلا أن نشاطها ليس متواصلا، وغير منتظم.

✓اقتصرت نشاطات اتحاد الكتاب الجزائريين على بعض المناسبات وعقد الملتقيات والتظاهرات العلمية، غير أن مجهوداته طغى عليها الارتجال واتسمت بالسطحية.

✓ضعف مستوى الترجمة ببلادنا حال دون الاطلاع على منجزات الحركة النقدية العالمية، وقلل فرص إحداث المثاقفة مع الغرب. كما أن فرص وصول الكتب والمجلات العربية والأجنبية محدود جدا، وذلك أمر أسهم في إضعاف نسبة المقروئية، وحد من سبل تطوير الحركة الأدبية والنقدية وتجديدها.

✓النقاد الجزائريون الذين مارسوا النقد في هذه الفترة أمثال محمد مصايف وعبد الله الركيبي وأبي القاسم سعد الله تنوعت ثقافتهم بين الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة، وإن كان رصيدهم من الثقافة التقليدية أكبر، مما انعكس على مستوى النقد الأدبي، وتجلى في إسهاماتهم النقدية؛ إذ كثيرا ما تجد دراستهم تقتصر على شكل العمل الأدبي وتتحكم فيها المعايير النقدية القديمة، وهو ما انتفى معه دراسة البنية الداخلية للعمل الأدبي، والنظر في علاقته

الجدلية مع الواقع الاجتماعي، وذلك باستثناء بعض محاولات محمد مصايف في أواخر حياته، فضلا عن انتشار النقد الانطباعي الصحفي الذي شكل ظاهرة عامة في بلادنا.

انطلاقا من هذا التوصيف السابق لا يمكن الحديث عن مجهود نقدي يستحق أن يوسم بمصطلح النقد، وبما تحمله الكلمة من معنى، ولا سيما في مرحلة ما قبل الاستقلال وبدايات مرحلة الاستقلال؛ لأن الظاهرة النقدية -كما أشرنا سابقا- بوصفها نشاطا فكريا تتأثر بمختلف الفعاليات الفكرية والنشاطات الثقافية والاجتماعية والسياسية داخل المجتمع سلبا وإيجابا. لكنه مع نهاية الستينيات وبداية السبعينيات بدأت تتشكل بوادر وإشارات إيجابية لبعض المظاهر الصحية في نقدنا الجزائري، وخاصة فترة السبعينيات التي تعد من أزهى الفترات التي نشطت فيها الحركة الأدبية والإبداعية الجزائرية وراكمت مجموعة من الأعمال الأدبية شعرا ونثرا (الرواية)، وعلى إثر ذلك سجلنا استفاقة نوعية -مقارنة بما سبق- لنقادنا الجزائريين الذين التفتوا إلى الاطلاع على المنجز النقدي العربي في المشرق من خلال محاولتهم تمثل بعض تجاربه ومحاكاتها وتفاعلهم معها واستثمار أدواتها في قراءة الأعمال الأدبية الجزائرية، كما وقفنا على بعض جوانب إفادتهم من المناهج النقدية الغربية سواء عن طريق هذه القنوات العربية الوسيطة كالانتقال إلى الدراسة في البلدان العربية أو القراءة في الكتب والمؤلفات التي كانت تصل إلى الجزائر، أو عن طريق ربط العلاقة والصلة معها مباشرة بالاطلاع عليها في محاضنها الأصلية، والتتلمذ على يد روادها ومؤسسيها، أو تدريسها في الجامعة الجزائرية، وخاصة في فترة الثمانينيات التي شهدت تحولا كبيرا في طبيعة النقد الجزائري الذي انفتح على المناهج النسقية كالبنيوية والسيميائية والتفكيكية والأسلوبية...وغيرها، بعدما عاش تجربة المرحلة السياقية التي شهدت انتشار المنهج الانطباعي والتاريخي والاجتماعي والنفساني، وإن مالت الكفة لصالح المنهج التاريخي والاجتماعي.

يحدد الناقد المغربي "سعيد يقطين" ثلاثة روافد معرفية رآها منطلقا أساسيا لتحقيق المثاقفة والتفاعل مع منجزات النقد الغربي ومعارفه، وهي[6]:

- ✓الاطلاع عليها في منابعها عبر تعلم لغاتها (تطور التعليم) أو الدراسة في معاهدها (البعثات العلمية).
- ✓اعتماد الترجمة أو تلخيص بعض تجلياتها، ونقلها إلى العربية.
- ✓الاستفادة من هذه المعرفة الغربية في تطبيقاتها على الثقافة العربية (أعمال المستشرقين).

وجد هذا التحديد السابق له صدى في أعمال النقاد الجزائريين الذين توجهوا إلى المعرفة الغربية، وأقاموا جسورا للتواصل والتحاور مع منجزاتها النقدية رغبة في تطوير طرائق النقد والقراءة والتحليل الأدبي، وفي الوصول إلى مناطق كانت معتمة في النصوص الأدبية لم تبلغها الطرائق النقدية التقليدية. فمن هذا المنطلق يمكن القول بأن نتاجات النقد الجزائري في فترة ما بعد الاستقلال "على الأقل، جاءت تحمل بصمات المثاقفة بدرجات متفاوتة تمتد من المحاكاة والتقليد لتصل أحيانا. إلى التمثل والفهم والتفاعل المبدع"[7] والمثمر مع أفكارها ومختلف مقولاتها، ولا سيما في مجال النقد الأدبي.

يسجل الدكتور "محمد عباس" في كتابه "دراسات تطبيقية" بعض الملاحظات والتحرزات تخص طبيعة تكون النقد الغربي ومسارات تحوله في بيئته الأصلية مقارنة بنسخته في البيئة العربية. ولعل هذه الملاحظات التي ساقها الباحث قد تنسحب على طبيعة تلقي هذا النقد وكيفيات تشكله ومسارات تحوله في البيئة الجزائرية أيضا، فبالرغم من أن النقد العربي -كما يرى الباحث- يعد مجرد صدى ومحاكاة للنقد الغربي إلا أنه لا يطابقه تمام المطابقة، ذلك لأنه يرى بأنه[8]:

✓إذا كان النقد الغربي قد مارس في كل تاريخه فعل الإنتاج، فإن النقد العربي قنع في معظم تاريخه بمستوى التلقي.

✓إذا كان النقد الغربي قد راكم إنجازه، مستجيبا في ذلك، لجملة حاجات أملاها التطور الطبيعي لمجتمعه، ولمعارف مجتمعه، فإن النقد العربي راكم معرفة يصعب تسويغ الحاجة إليها في واقع مجتمعه، وواقع معرفته المعاقة.

✓إذا كان النقد الغربي قد عرف سيرورة منطقية ومسوغة، فإن النقد العربي عرف انتقالات حادة ومشوهة.

✓إذا كان النقد الغربي قد عاش تحولات طبيعية، فإن النقد العربي عرف تحولات مبتسرة.

وكان "سعيد يقطين" قبله قد بين العلاقة التي تميز طبيعة تعامل النقد العربي مع النظريات الغربية، وكشف عن المفارقات الحاصلة بين كيفيات إنتاج هذه المعرفة النقدية وتبلورها في محاضنها الأصلية في الثقافة الغربية، وبين طرائق تلقيها وكيفيات إنتاجها وتكونها ومسارات تحولها واستنباتها في البيئة العربية، وهذه المفارقات النقدية حددها من خلال ثلاثة مسارات وسمها كالآتي[9]:

✓**مسار الانقطاع:** وذلك أن طبيعة إنتاج النظريات النقدية الغربية عندنا تتعدد إبدالاتها وتتحول بتعدد المنعطفات الكبرى والتحولات التاريخية التي عرفها المجتمع العربي، وعند كل منعطف جديد يجد الفكر النقدي والأدبي العربي نفسه في حاجة إلى خلفية معرفية ومرجعية نقدية غربية لسد الفراغ الحاصل وجبر النقص المسجل، الشيء الذي يعني أن هذه الإبدالات النقدية لا تتحقق على أساس تطور طبيعي وداخلي للاتجاهات النقدية التي تمارس في الواقع الأدبي العربي، وتبعا لتبدل مجالات الإبداع، وتبلور اتجاهات جديدة فيه. وذلك يختلف تماما مع صيرورة إنتاجها في الثقافة الغربية التي يكون إنتاج المعرفة فيها نابعا من حاجة أملتها ظروف المجتمع، واستجابة لتطوره الطبيعي.

✓**مسار التفاوت الزمني:** ويعني به أن مسألة تلقف النقد العربي للمعرفة النقدية الغربية لا يتم من خلال مواكبتها وتحقيق التكافؤ معها، ومن خلال الاطلاع عليها والتفاعل معها بشكل يكون متزامنا -على الأقل- مع المرحلة الزمنية التي تبلورت فيه، بل إن انتقالها إلينا لا يتم إلا بعد مرور مدة زمنية طويلة، وبعد إعلان موتها، وانتهاء صلاحيتها، واستنفاد طاقتها وتجاوزها في محيطها الثقافي الذي ظهرت فيه.

✓**مسار الإلغاء:** يقوم هذا المسار في النقد العربي من خلال قيام إبدال نقدي على إلغاء إبدال نقدي سابق عليه، عبر القطيعة معه بشكل جذري بحيث لا يدع مجالا للرجوع إليه للإفادة منه أو تطويره في فترة لاحقة. وبهذا فقد جعل الإلغاء معرفتنا الأدبية والنقدية لا تقوم على أساس التحول الطبيعي (من-إلى). ولكن القفز الفوقي (إلى-إلى).

إن العلاقة غير المتكافئة بين الغرب منتجا للمعرفة والعربي متلقيا لها جعلت نقدنا العربي يعيش تحت تأثير هذه المفارقات والمسارات النقدية المتفاوتة، الأمر الذي أحال العملية النقدية في البلدان العربية ومنها الجزائر على ضروب من الفوضى والاجترار الحرفي للمناهج والنظريات الغربية، وعلى التنويع في مراكمة البدائل النقدية ورصفها، ومحاولة فرضها من خارج النص الأدبي العربي، دون مراعاة لخصوصية هذا النص العربية، وخصوصية المجتمع ومتغيرات الواقع والتحولات السائدة فيه، وذلك ما قاد في النهاية إلى ركوننا في تبعية مستمرة وملاحقة دائمة لما تنتجه الثقافة الغربية، دون إحداث النقلة النوعية المرجوة، ودون تحقيق التفاعل الإيجابي والاستفادة المثمرة من معارفها.

انطلاقا مما سبق وعلى الرغم من النقائص المسجلة والمفارقات الحاصلة والعلاقة غير المتكافئة بين النقد الغربي والنقد العربي عامة، إلا أننا لا ننفي مسألة تفاعل النقد العربي والجزائري على وجه الخصوص مع المعرفة النقدية الغربية، وكان له أن يجرب ثلاثة إبدالات نقدية تختزل مسارات النقد الأدبي في بلادنا، وهي كما حددها "سعيد يقطين" في أثناء متابعته لمسارات النقد العربي عموما[10]:

- ✓الدراسة التاريخية للأدب (المرحلة اللانسونية).
- ✓دراسة المضامين الاجتماعية وأبعادها الإيديولوجية (الواقعية).
- ✓التركيز على الأشكال ونظريات التأويل (البنيوية وما بعدها).

وفي هذا الصدد يلخص الباحث "رشيد بنحدو" -في سياق حديثه عن الثورة التي أحدثتها نظرية التلقي في السبعينيات- المسارات التي مر بها النقد الغربي والعربي، ولعل كلامه ينطبق على المسارات التي مر بها النقد الجزائري كذلك؛ حيث رأى "أن تحليل الأدب وتأويله في السياق الغربي (وإلى حد ما في السياق المغربي والعربي كذلك، مع مراعاة بعض الفوارق) كانا في الجملة يتمان من ثلاث زوايا متعارضة، لكنها "متعايشة": فمن زاوية أولى، كان يؤرخ للآداب القومية بالتركيز على الأدباء أنفسهم (سيرهم والعوامل الخارجية المؤثرة فيهم)، مع حرص استطرادي على تصنيف أعمالهم في خانات مقررة سلفا تبعا لعدد من المتغيرات السياسية أو المهيمنات الغرضية أو السمات الفنية. ومن زاوية ثانية، كان ينظر إلى الأدب بما هو ممارسة إيديولوجية ترتبط جدليا بالبنية الاجتماعية-الاقتصادية السائدة، بحيث يصدر عنها ويعكسها لزوما. ومن زاوية ثالثة مغايرة لهذه، كان ينظر إلى النص الأدبي بما هو نشاط لغوي وتكييف شكلي لا يتعلقان إطلاقا بأية اعتبارات خارجية محتملة، ومن ثم فهو يتمتع باستقلاله الخاص كبنية مكتفية بذاتها"[11]. من هذا المنطلق يتضح أن النقد الجزائري كصنوه في المشرق العربي عاش -تقريبا- نفس الظروف والملابسات على الأقل في ممارسته لهذه الإبدالات النقدية السابقة عبر مسار تحوله، وإن بنسب متفاوتة، حيث سجلنا حضورا للمناهج السياقية متمثلة في المنهج التاريخي والاجتماعي والنفساني، والمناهج النسقية النصانية متمثلة في المنهج البنيوي والسيميائي والأسلوبي والتفكيكي....وغيرها. وفيما يلي ستحاول هذه الدراسة مقاربة توجه من هذه التوجهات السابقة في الممارسة النقدية الجزائرية، ويتعلق الأمر باتجاه النقد الاجتماعي بوصفه أحد أكثر المناهج والإبدالات التي جربها النقد الجزائري عبر مساراته وتحولاته.

✓**تلقي النقد الاجتماعي في الجزائر:**

إذا كان النقد التاريخي في الجزائر قد فرضته ظروف تاريخية واستعمارية جعلت النقاد يقبلون على لم شتات النصوص الأدبية المغمورة والتأريخ لها، فإن المنهج الاجتماعي هو الآخر قد وجد في ظل ظروف وإكراهات مرحلية (فترة السبعينيات) أفرزها المد الاشتراكي الذي أسس له كل من كارل ماركس وإنجلز ولينين (الفلسفة المادية الجدلية). وتتلخص الرؤية الاجتماعية للأدب في مقولة ماركس الشهيرة التي يقول فيها: "ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم"[12]. إن الهيمنة التي فرضتها الإيديولوجية الاشتراكية على كافة مناحي الحياة الجزائرية، السياسية، الاقتصادية، والثقافية (فترة السبعينيات) أسفرت عن ظهور كم نقدي هائل شدد على إبراز المضامين الاجتماعية في الأعمال الأدبية.

ومن النقاد الجزائريين الذين تمثلوا النقد الاجتماعي في أعمالهم نذكر الناقد محمد مصايف وخاصة في كتابيه "دراسات في الأدب والنقد"، و"الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام". فقد ركز الباحث -في هذا المجال- على الرسالة الاجتماعية التي يؤديها الأديب، بحيث يكون لسان الطبقة الكادحة في المجتمع، كما يؤكد أيضا على رسالة الناقد وهي "ألا يغفل الجانب الاجتماعي في أعمال الأدباء، فيبين العلاقة التي تربط بين هذه الأعمال، وبين تطلعات المجتمع، ومدى خدمة هذه الأعمال لآمال الطبقات العاملة المحرومة. فتحديد الناقد للاتجاه العام لاينبغي أن يكون حياديا، بل ينبغي أن يمتحن مدى التزام الأديب بقضايا المجتمع، ويجوز له أن يجامل في الحكم على الأعمال التي تشذ عن الخط العام، وتخدم تطلعات غير مشروعة..."[13]. ومن المصطلحات النقدية الاجتماعية التي أولاها مصايف اهتماما بالغا مصطلح الالتزام الذي خصص له كتابيه "دراسات في النقد والأدب" و"فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث"، فهو يرى بأن الالتزام يعني "اعتناق هذا الأديب شاعرا كان أم كاتبا لموضوعات وطنية أو إنسانية أو مذهبية عن اختيار، فالالتزام قبل كل شيء اختيار شخصي دونما ضغط خارجي، فالأديب الملتزم يختار موضوعه وطريقة تعبيره بحرية كاملة، لأنهما يوافقان مذهبه في الحياة، ويلبيان نزعة عميقة في نفسه"[14].

وعلى نهج نقدي اجتماعي مغاير تماما سار الناقد واسيني الأعرج في دراسته الرائدة "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر"، فكان أكثر النقاد الجزائريين تمثلا للنقد الاجتماعي في أصوله المادية الجدلية، وبمصطلحات مفهومية دقيقة من مثل: الطبقة، البرجوازية الصغيرة، الإقطاعية، الانعكاس، الواقع، الوعي الجماهيري، المجتمع، الفلاحون، العمال، البطل، البنية الفوقية، البنية التحتية، الواقعية النقدية، الواقعية الاشتراكية، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، الشكل والمضمون...وغيرها من المصطلحات التي عول عليها الفكر المادي الجدلي، الذي تلونت به مرحلة السبعينيات. فالمعجم الاصطلاحي النقدي الذي وظفه الناقد، والمضامين الاجتماعية والتاريخية التي ركز عليها في دراسته جعلتنا -وبكل وضوح-"نضعه في خانة النقاد الواقعيين"[15]. كما نجده في ضوء الرؤية الاجتماعية يتصدى لمجموعة من النماذج الروائية الجزائرية ودراستها ضمن اتجاهين اجتماعيين بارزين هما: اتجاه الواقعية النقدية، والاتجاه الواقعي الاشتراكي.

أما في دراسته التي خصصها للكتابة الروائية عند الطاهر وطار والتي وسمها بـــ: "الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية: الرواية نموذجا"، فحاول من خلالها الوقوف على تجربة الواقعية الاشتراكية في الأعمال الروائية الجزائرية، فوقع اختياره على الطاهر وطار بوصفه نموذجا متميزا لتمثل هذه التجربة في روايات اللاز والعشق والموت في الزمن الحراشي والزلزال وعرس بغل والحوات والقصر. وهو ما عبر عنه "واسيني" حينما قال: "لقد استطاع الطاهر وطار، بتجربة ثورية جيدة، وهو بلا شك يكتب بنفس تقدمي واضح لا يحتاج إلى تزكية أو شهادة إثبات، أن يفتح مرحلة جديدة، لتطور الواقعية الاشتراكية في الرواية الجزائرية ذات التعبير العربين مستفيدا من ثقافته التراثية والحديثة، الجيدة، ومن واقعه الذي يعيشه بعمق بحكم عمله السياسي كمراقب في الحزب، والذي كون لديه القناعة التاريخية التي تعتبر أن الفن ليس مجرد تعبير عن الواقع، بل هو أداة فعالة لتغييره"[16]. وهو ما دفعه إلى القول بأن "الاتجاه الاشتراكي الواقعي مؤهل تاريخيا لاستقطاب كتابات شابة كثيرة، ولأن بلعب دوره كاملا في السنوات القليلة القادمة ولا يبقى مقصورا على الطاهر وطار في الرواية. فستشهد الساحة حتما تراكما كيفيا وكميا نظرا لتعقد المرحلة التاريخية التي لم تعد القصة القصيرة كافية لاستيعابها"[17]، لينتهي في الأخير إلى قناعة راسخة مفادها أن الرواية "هي الشكل الأدبي الأكثر استيعابا لواقع التحولات الجديدة، في مرحلة البناء الوطني"[18].

وقد كان من نتائج ذلك أن شهدت مرحلة السبعينيات تغيرات على مستوى البنية التحتية التي مارست تأثيرها على البنى الفوقية، "فكثرت المواضيع التي تتناول الإنجازات الديمقراطية التي تحققت في الجزائر، كالثورة الزراعية، والتسيير الاشتراكي للمؤسسات، والطب المجاني، وديمقراطية التعليم، التأمينات وغيرها. وقد شهدت هذه الفترة تراكما كميا على الأقل في الرواية... وأصبح الكاتب يقاس بمدى اقترابه من أو ابتعاده من الإنجازات الديمقراطية التي تحققت في البلاد."[19]

من النماذج النقدية الجزائرية التي تبنت المنهج الاجتماعي-أيضا-نذكر الناقد محمد ساري في كتابه "البحث عن النقد الأدبي الجديد"، الذي أفاد فيه من طروحات جورج لوكاتش ولوسيان غولدمان وغيرهما من منظري الفكر الواقعي والإيديولوجي[20]. إضافة إلى ذلك فمحمد ساري يعد- في حدود اطلاعنا-أول ناقد جزائري نظّر للبنيوية التكوينية لدى رائدها الأول لوسيان غولدمان.

وفق الرؤية اللوكاتشية التي لا تنظر إلى الأدب بوصفه انعكاسا مرآويا آليا للحياة الاجتماعية، وإنما على أساس رؤية فنية جمالية أو ما سمي برؤية العالم التي يصوغها الأديب بأدواته اللغوية والجمالية؛ إذ يرى أنه لا يمكن أن يفهم من "العلاقة بين الأدب والحياة الاجتماعية، أن الشكل الفني هو صورة بسيطة، آلية للحياة الاجتماعية، فعملية الإبداع تولد كانعكاس موضوعي للتيارات الاجتماعية، لكنها تملك ديناميكيتها الخاصة واتجاهها الخاص الذين يقربانها أو يبعدانها عما هو مقابل للحقيقة"[21]. وبهذا الطرح الاجتماعي الجديد الذي اختار له نماذج روائية جزائرية للطاهر وطار ورشيد بوجدرة وإسماعيل غموقات وبكير بوراس ومالك حداد، يكون الباحث "محمد ساري" قد أدرك القصور الذي يعتري النظرة الاجتماعية الآلية للأدب، وأن للنص الأدبي جانب آخر يتعلق ببنائه اللغوي والجمالي. وقد عمل الباحث على توظيف عدة مصطلحية وفية لطروحات لوكاتش وغولدمان -كما

أشرنا- وهذه للمصطلحات هي: رؤية العالم، الرؤية المأساوية، الفهم والتفسير، البطل الملحمي، البطل السلبي والإيجابي، الشخصية النموذجية.

وفي مقال له منشور بمجلة آفاق المغربية في عددها الأول الصادر سنة 1990 يقدم محمد ساري دراسة نقدية عنونها بـــ: "طبيعة الصراع والرؤية للعالم في رواية بدر زمانه لمبارك ربيع" وفق المنطلقات النقدية السابقة لجورج لوكاتس وغولدمان، حيث ينتهي في الأخير إلى "أن رؤية العالم لمبارك ربيع في روايته بدر زمانه هي رؤية متشائمة رغم إيمانها بالصراع من أجل تغيير المجتمع، ولكنها لا تأمل كثيرا في إمكانية تغييره، ذلك أن قوة الشر والطمع والتسلط الكامنة في الإنسان تكاد تتصل بالجوهر أي بالغريزة...هي رؤية تؤمن إيمانا مطلقا بضرورة التغيير وإحلال الخير بين الشر، ولكنها تدرك الإمكانيات المحدودة لمحاولة القضاء على الظلم والجور والفقر. إنه موقف تراجيدي، أن يضحي الإنسان من أجل التغيير، وهو يدرك استحالة تحقيق هذا التغيير"[22]. فهذه الرؤية التي يتفق معه حولها ساري، فيها نوع من المبالغة وغلق لكل أبواب الخير الذي لا ينقطع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وجد النقد الاجتماعي ضالته في كتابات عدد هائل من النقاد الجزائريين ولقي ترحابا كبيرا خلال السبعينيات وبداية الثمانينيات، بحيث يصعب أن نلم بها جميعا، فالمسألة تتطلب وقفة متأنية وبحثا مستقلا يتناول التجربة النقدية الجزائرية مع المنهج الاجتماعي بإنصاف، ونحن في هذا المجال نكتفي بالإشارة إلى بعض النماذج النقدية الأخرى، إضافة إلى مصايف، واسيني وساري ممن كانت لهم تجربة مع المنهج الاجتماعي، نذكر زينب الأعوج في كتابها "السمات الواقعية للتجربة الشعرية في الجزائر"، وكتابي الدكتور مخلوف عامر" تطلعات إلى الغد"، "وتجارب قصيرة وقضايا كبيرة"، فقد حدد الناقد "مخلوف عامر" في الكتاب الأول شروطا وقوانين منهجية صارمة لدراسة العمل الأدبي. يقول:"لابد من دراسة العمل الأدبي وفق ما يقتضيه منطق حركته الداخلية. وفي علاقته مع حركة المجتمع. هذا الربط ضروري لأن الإنتاج الأدبي لا يفهم فهما صحيحا إلا على ضوء الظروف التي هو وليدها وإلا كانت الدراسة لا تاريخية منفصلة عن الزمان والمكان وقد تنفصل عن المبدع نفسه"[23]. وأعلن في الثاني عن توجهه الاجتماعي في دراسة الأدب، وإن كان ذلك من خلال موقفه الرافض لتبني إجراءات التحليل النفسي، حيث يقول: "ولم أكن مغرما بالتحليل النفسي الذي يسلب الأثر الأدبي وجوده المادي العياني ويلهث وراء التقاط كل صغيرة وكبيرة لها علاقة بحياة الأديب، ثم يؤخذ صاحب الأثر منعزلا عن الظروف التي كان إبداعه ثمرة لها...كنت أميل إلى الاقتناع بأن النص الأدبي يمثل فكر صاحبه في فترة تاريخية معينة وفي ظروف محددة، على أن هذا الفكر ليس ثابتا مطلقا، بل يتميز بالحركة المستمرة والتغير الدائم، وقد لا يتجسد بنفس النوعية في أعمال أدبية لاحقة للأديب الواحد"[24]. لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك في توضيح قناعته الاجتماعية في التعاطي مع الظاهرة الإبداعية حينما صرح بأن الرؤية التي كان يعتمد عليها عند القراءة والكتابة معا هي الرؤية التي تتبناها يمنى العيد[25]، التي تعد من رواد النقد الاجتماعي في الساحة النقدية العربية. تقول يمنى العيد :"إن الأديب أو المفكر هو أثره ثم أثره، استمرارا لا تأكيدا وتكرارا، وساعات الإنتاج هي أكثر الساعات التي يكون فيها صاحب الأثر أدبه أو فكره"[26].

لينتهي الناقد في كتابه "متابعات في الثقافة والأدب" إلى وضع جملة من الشروط يرى أن توفرها ضروري من أجل التأسيس لما سماه المنهج الواقعي وهذه الشروط هي كالآتي[27]:

✓ضرورة امتلاك وعي نظري يسمح بفهم طبيعة الإنتاج الأدبي ضمن إيديولوجيا معينة.

✓ضرورة امتلاك ثقافة أدبية، والتمكن -قدر المستطاع- من أسرار اللغة وقواعدها، هذه الثقافة الموسوعية هي بمثابة جهاز تنفس يسهل عملية الغوص في أعماق الإبداع الفني ويضمن بالإضافة إلى ذلك النجاة.

✓ألا يكتفي القارئ/الناقد بالتذوق الخالص، وذلك بأن ينسلخ عن العمل الأدبي ويعلو عليه، لا ليأخذه كظاهرة توجد في الوعي فقط، بل توجد أيضا في علاقة جدلية مع الزمان والمكان، مع العالم الموضوعي الخارجي، الذي يتطلب إدراكه نضجا فكريا ووعيا متكاملا يؤهلان الناقد إلى ىسبر أغوار حركة المجتمع وتحديد مسارها بدقة. وهذا بدوره لا يتأتى إلا من خلال معرفة عميقة بالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ وكافة العلوم الإنسانية.

✓دراسة البنية الداخلية للعمل الأدبي تقتضي أن يكون القارئ/ الناقد ملما أو مطلعا على النظريات الجمالية القديمة والحديثة، وأن الخلاف اليوم لم يعد حول ما إذا كان للأدب وظيفة أم لا، بل الخلاف حول طبيعة هذه الوظيفة.

✓إن دراسة الناحية الجمالية في النص ضرورية، وينبغي أن تحمينا من السقوط في التفسير الاجتماعي على نحو ما ظهر عند لوسيان غولدمان وتحمينا من خطري الإرادوية والاقتصادية.

✓تعد قضية الشكل والمضمون من أبرز المسائل التي أثارت صعوبات جمة، أفضت إلى الخلط –في كثير من الأحيان- إلى الخلط بين الموضوع والمضمون، وهذه الصعوبة إنما تذلل في النقد الأدبي عن طريق الممارسة ثم الممارسة استمرارا لا تكرارا.

إضافة إلى دراسات نقدية أخرى للدكتور أحمد طالب "الالتزام في القصة القصيرة الجزائرية المعاصرة"، والدكتور عمر بن قينة "دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة"، ومصطفى فاسي "البطل في القصة التونسية"، وأحمد منور "قراءات في القصة الجزائرية" وغيرها من النماذج النقدية الجزائرية التي اصطبغت بروح نقدية اجتماعية.

يجمل الباحث يوسف وغليسي -كذلك- مواصفات النقد الاجتماعي في الجزائر كالآتي[28]:

✓هيمن على الخطاب النقدي الجزائري بصفة شاملة خلال السبعينيات وبداية الثمانينيات ثم بدأ يتراجع تحت وطأة النقد الألسني الجديد.

✓طبق على النصوص السردية بحجم كبير يفوق -بكثير- حجم تطبيقه على النصوص الشعرية.

✓آمن أصحابه بجدلية الشكل والمضمون نظريا، ولكن تجسيدهم لها تطبيقيا كان خافتا.

✓غلب فيه النظر إلى مضمون العمل الأدبي على الجانب الشكلي الجمالي.

✓استمد مرجعيته النظرية من الأصول العالمية للفكر الواقعي عند البعض مثل الأعرج واسيني ومحمد ساري، بينما استمدها من بعض الوسائط النقدية العربية عند البعض كالركيبي ومصايف، حيث نلمس شبها كبيرا بين منهج مصايف ومعالم النقد الإيديولوجي عند محمد مندور.

✓ لم تراع الرؤية الطبقية خصوصيات النص الأدبي المبدع خارج مظلة الواقعية الاشتراكية.

✓مورس النقد الاجتماعي بنزعة معيارية تقويمية وتوجيهية.

✓قل رصيده من المصطلحات النقدية، و لم تطرح إشكالية المصطلح عنده على الإطلاق.

✓ما وظف من مصطلحات نقدية كان وثيق الصلة بالمنهج (الالتزام) الانعكاس، البطل الملحمي، البطل النموذجي، البطل السلبي، البطل الإيجابي، الواقعية، الأدب الهادف، الشكل والمضمون...إلخ وهي علامة منهجية صحية. لكن هذا التوظيف لم يخل تماما من بعض الخلط كما هو الحال في مصطلح البطل الملحمي عند محمد ساري.

✓كان مصطلح البطل من أكثر المصطلحات النقدية تداولا في ضوء هذا المنهج.

✓قوبل النقد الاجتماعي بحفاوة كبيرة في البدء. لكنه سرعان ما انطفأت جذوتها، وكان مرتاض أكثر النقاد جهرا بازدرائه له وزهده فيه ورغبته عنه، لأنه لا هم له إلا تعليل "كل شيء تعليلا طبقيا، وربطه بين الصراع بين البنية الفوقية والبنية التحتية"[29]. على حد تعبيره رغم أن له سابق عهد قصير بشيء من الممارسة الاجتماعية في كتابه "فنون النثر الأدبي في الجزائر" بوجه خاص.

كانت هذه وقفة سريعة مع المنهج الاجتماعي في النقد الجزائري الذي بسط هيمنته واسعا ونال حظا وافرا من كتابات النقاد الجزائريين -خلال مرحلة السبعينيات بخاصة- قبل أن يبدأ نجمه في الأفول مع ظهور المناهج النسقية التي تركز على بنية النصوص الأدبية ومختلف مستوياتها الشكلية واللغوية.

قائمة الهوامش

[1]: محمد عباس، دراسات نقدية، دار القدس العربي، وهران، الجزائر، ط1، 2016، ص. 14.

[2]: ينظر، المرجع نفسه، ص. 12.

[3]: سعيد يقطين وفيصل دراج، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص. 82.

[4]: ينظر، مخلوف عامر، متابعات في الثقافة والأدب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2002، ص. 212.

[5]: ينظر، المرجع نفسه، ص. 211 وما بعدها.

*: في الوقت الذي ذكر مخلوف عامر جملة من الأسباب والعوامل التي أدت إلى تراجع وضعف الحركة النقدية في الجزائر خلال هذه الفترة نجد الباحث التونسي بوشوشة بن جمعة يرصد مجموعة من العوامل كانت سببا في تبلور الفكر النقدي الجزائري خلال الفترة التي تمتد من بداية القرن العشرين إلى منتصف الخمسينيات، ومن هذه العوامل نذكر:-اتصال أدباء الجزائر ومثقفيها بأعلام الأدب العربي في المشرق العربي-ظهور المجلات والجرائد والنوادي والجمعيات الثقافية مثل نادي الترقي بالعاصمة-تأسيس المدارس التعليمية وعودة عناصر البعثات الدراسية إلى أرض الوطن- عودة الأديب والكاتب أحمد رضا حوحو إلى أرض الوطن سنة 1946. ينظر، بوشوشة بن جمعة، النقد الروائي في المغرب العربي: إشكالية المفاهيم وأجناسية الرواية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص. 38 وما بعدها.

[6]: سعيد يقطين وفيصل دراج، المرجع السابق، ص. 20.

[7]: محمد برادة، تحولات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2003، ص. 33.

[8]: محمد عباس، المرجع السابق، ص. 18.

[9]: سعيد يقطين وفيصل دراج، المرجع السابق، ص. 28، 29، 30.

[10]: المرجع نفسه، ص. 21.

[11]: هانس روبيرت ياوس، جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الادبي، تقديم وترجمة، رشيد بنحدو، منشورات ضفاف، بيروت، كلمة للنشر والتوزيع، تونس، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2016، ص. 11.

[12]: كارل ماركس، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة دكتور راشد البراوي، دار النهضة العربية، ط1، 1969، ص. 03.

[13]: محمد مصايف، دراسات في الأدب والنقد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص. 67.

[14]: محمد مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981، ص. 194.

[15]: جعفر يايوش، المسار الروائي عند واسيني الأعرج من رواية النقد إلى فسحة الإبداع، دفاتر المركز رقم 11-2005- منشورات كراسك، تنسيق محمد داود، وقائع اليوم الدراسي، لعرج واسيني وشغف الكتابة وهران 19 ماي، 2002، ص. 30.

[16]: واسيني الأعرج، الطاهر وطار وتجربة الكتابة الواقعية: الرواية نموذجا، دراسة نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص. 30.

[17]: المرجع نفسه، ص. 30، 31.

[18]: زتيلي محمد وبوذيبة إدريس، مقدمة في الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، مجلة الثقافة والثورة، وزارة التعليم العالي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1980، ص. 09. نقلا عن واسيني الأعرج، المرجع السابق، ص. 31.

[19]: واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر: بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص. 10.

[20]: ينظر، محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة: دراسة في نقد النقد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص. 159-162.

[21]: محمد ساري، البحث عن النقد الأدبي الجديد، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص. 61.

[22]: محمد ساري، طبيعة الصراع والرؤية للعالم في رواية بدر زمانه لمبارك ربيع، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، ع1، 1990، ص. 122، 123.

[23]: مخلوف عامر، تطلعات إلى الغد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 2003، ص. 100.

[24]: مخلوف عامر، تجارب قصيرة وقضايا كبيرة: مقالات نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 07.

[25]: ينظر، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[26]: يمنى العيد، ممارسات في النقد الأدبي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1975، ص. 09-10.

[27]: ينظر، مخلوف عامر، متابعات في الثقافة والأدب، ص. 241 وما بعدها.

[28]: ينظر، يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط1، الجزائر، 2002، ص. 59، 60، 61.

[29]: عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص. 10.